الإسلام دين الرحمة (*)

من كمال الدين الإسلامي وجماله أنّه دينُ الرَّحمة بكلّ جوانبها ، فهي صفة أخلاقية انفردت وحدها في القرآن الكريم بالصدارة ، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى، فلقد تكررت الرحمة بمشتقاتها قرابة ثلاثمائة وخمس عشرة مرةً ، إنَّ هذا ليس مصادفة بحال من الأحوال، فكل كلمة وكل حرف في القرآن الكريم نزل بقَدَر ، ومن ثَمَّ فكل وثائق حقوق الإنسان ترجع في مصادرها وأصولها إلى ما أوصى به الإسلام من مبادئ وقيم

فالإسلام دينُ الرَّحمة بكلّ صورها ، ودينُ الوسطيّة والاعتدال ، دينُ الصلاح والإصلاح ، دينُ الأمن والأمان ، دينُ السلم والسلام ، ونبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) أرسله الله تعالى رحمة للعاملين ، قال الله (عز وجل) : {وَمَا

*) د/ هشام عبدالعزيز علي – باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧]، وكتابه (عز وجل) رحمة للعالمين ، قال عز من قائل: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[الإسراء:٨٢] ، ولو أردنا أن نختار اسما لهذا الدين ووصفا لكان دين الرحمة

والرحمة هي : كلمة جامعة لمكارم الأخلاق ، قال العلامة ابن القيم (رحمه الله) : الرّحمة سبب واصل بين اللّه- عزّ وجلّ- وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم ، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم ، فبينهم وبينه سبب العبوديّة ، وبينه وبينهم سبب الرّحمة.

ونبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أقام دولة الإسلام بالرحمة وكانت الرحمة هي أخص خصائصه ، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧] ، بل لقد بلغت الرحمة درجة متناهية في حق الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى ذكر الله (عز وجل) أنه أولى بالمؤمنين من

أنفسهم قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..} [الأحزاب: ٦] ، وقد ذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم) هذا المعنى صريحًا في قوله : (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ) (متفق عليه).

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) للإنسانية أروع الأمثلة في رحمته بالإنسان والحيوان والنبات والجماد ، فهي رحمة عامة وسعت كل المخلوقات ، حتى الخادم له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن أَنَس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: (خَدَمْتُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ وَلَا لِمَ صَنَعْتَ وَلَا أَلا صَنَعْتَ) (متفق عليه)، وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ

مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (متفق عليه).

وقد كان للطفل- أيضًا- نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن أَبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: (قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ) (متفق عليه)، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضَعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَكَانَ يَأْتِيهِ وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيُدَّخَنُ فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ) (رواه مسلم).

ومن الأدلة على شمول الرحمة لكل الخلق أن الله سبحانه جعل من يقوم على اليتامى- بالإنفاق والكفالة والرعاية التي يحتاجون إليها- من المرافقين لرسول الله

(صلى الله عليه وسلم) في الجنة ، فعَنْ سَهْلٍ (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا) (رواه البخاري) ، ويستوي في هذه المنزلة من كفل يتيما من أقاربه أو من غيرهم ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) (رواه مسلم).

والحيوان أيضًا له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل حائطًا لرجل من الأنصار ، فإذا به جمل ، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) حنّ وذرفت عيناه فأتاه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ذفراه (عيناه) فسكت ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟) فجاء فتى من الأنصار فقال: لي

يا رسول الله، فقال له: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (رواه أبو داود في سننه)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (عُذِّبَت امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ) (متفق عليه).

إنها الرحمة التي حَثَّنا عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبرنا أن الله تعالى يرحم أصحابها ، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)(سنن الترمذي).

ومن مظاهر الرحمة المتعددة في التشريع الإسلامي أنه رفع الحرج عن الضعفاء والمرضى ، قال تعالى: {لَيْسَ

عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}[الفتح:١٧]. وغير ذلك الكثير والكثير من صور الرحمة في التشريع الإسلامي التي تدل دلالة واضحة على أن الإسلام في مظهره وجوهره هو دين الرحمة واليسر ومراعاة مصالح العباد ، فالتشدد والتطرف والقسوة والغلظة ليسوا من مبادئ الإسلام ، فهي أمور تتنافى جملة وتفصيلا مع تعاليمه السمحة ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُكَرِّهْ عِبَادَةَ اللهِ إِلَى عِبَادِهِ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا يَقْطَعُ سَفَرًا وَلَا يَسْتَبْقِي ظَهْرًا) (البيهقي في شعب الإيمان وأخرجه أحمد مختصرًا وهو حسن بشواهده).

إنها الرحمة المجردة تمامًا عن أي هوى، والتي ليس من ورائها نفعٌ دنيويٌّ، ولا هدفٌ شخصيٌّ، لقد بلغت رحمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأمته حدًّا يفوق كل تصورات

العقل، حتى إن الأمر وصل إلى خوفه عليهم من الغلو في العبادة التي تعني التقرب إلى الله والتبتل إليه، لكنه (صلى الله عليه وسلم) كان يخشى على أمته من المبالغة في الأمر فتفقد الأمة التوازن المطلوب في حياة أفرادها ، فيصل بهم الأمر إلى المَلل والكسل من العبادة التي هي مطلوب الخالق من خلقه ، أو يصل بهم الحد إلى الإرهاق الزائد عن طاقة الإنسان ، لذلك رأيناه (صلى الله عليه وسلم) كثيرًا ما يترك الأعمال المقربة إلى قلبه المحببة إلى نفسه ، لا لشيء إلا لخوفه أن يُفرَض على أمته فيعنتهم ويشق عليهم، تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : (إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ) (متفق عليه) .

ولم تقتصر الرحمة النبوية على حياة المسلمين في المجتمع الإسلامي بل تعدت ذلك إلى آداب الحرب في أوقات القتال لتنبه وتؤكد على طابع الحرب في الإسلام من

حيث كونها حربا دفاعية تهدف إلى البناء لا الهدم ، وإلى التعمير لا التخريب، وتسعى لإتاحة حرية الاختيار ، ويبدو خلق الرحمة النبوية واضحًا في الحرب حيث يوصي النبي (صلى الله عليه وسلم) بقتال المحاربين فقط وعدم قتل الأطفال والشيوخ والعبَّاد الذين تفرغوا للعبادة وعدم حرق الأشجار والممتلكات وانتهاك الأعراض.

بل نجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغضب حين وجد امرأة مقتولة في إحدى الغزوات ، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي غَزَاةٍ، فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ وَالنَّاسُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: (مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، أَدْرِكْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلْ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا) (رواه أحمد وأبو داود وابن حبان).

ومن رحمة الإسلام أنه يأمر أتباعه بأن لا يظلموا غير المسلمين ، فعَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَلَى أُنَاسٍ مِنَ الأَنْبَاطِ بِالشَّامِ قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ

فَقَالَ مَا شَأْنُهُمْ قَالُوا حُبِسُوا فِي الْجِزْيَةِ. فَقَالَ هِشَامٌ : أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ : (إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا) (رواه مسلم).

وكذلك حرّم الإسلام الاعتداء على من أمّنه المسلمون من أهل الذّمّة والعهود ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (من قتل معاهَدًا لم يرَحْ رائحةَ الجنَّة، وإنَّ ريحَها ليوجد من مسيرةِ أربعين عامًا) (رواه البخاري).

هذه الصور العظيمة للرحمة في حياة النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تعبر عن الرحمة التي أسكنها الله قلبه الشريف (صلى الله عليه وسلم) ، ففرج الله ببركتها الكثير من الهموم عن أصحابها ، وفتح بها أبواب الخير والبركة ، قال تعالى: { فبما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩]، فشريعة الإسلام هي

شريعة الرحمة والتيسير ، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[النساء: ٢٨].

إن الإسلام دين الرحمة والرفق والعطف والتسامح واليسر ، فمن يأخذ بيدك إلى الرحمة والتسامح يأخذ بيدك إلى صحيح الإسلام ، ومن يأخذ بيدك إلى العنف والقتل يأخذك إلى طريق الهلاك ، ذلك أن الله (عز وجل) بعث سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين.

والمتأمل في واقع البشرية يجد أنها في أمس الحاجة للتخلق بهذه الصفة الجليلة وهذا الخلق الجليل ، وإحياء هذه القيمة الغالية التي تدل على ثقافة وتحضر الأمم وتقدمها، فمجتمع لا يعرف الرحمة في قوانينه وتعاملاته مع البشرية والإنسانية هو مجتمع متخلف وإن ادعى التحضر والتقدم والرقي.